الفصل الرابع

حركة الموالى فى قيام الدولة العباسية

أبو مسلم — البرامكة

فى سنة ١٢٦ هـ ، ٧٤٤ م وجه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بكير ابن ماهان إلى خراسان ومعه السيرة والوصية ، فقدم مرو وجمع فيها النقباء ومن بها من الدعاة ، ونعى لهم الإمام محمد بن على ، ودعاهم إلى إبراهيم فقبلوا الدعوة[1] وفى سنة ١٢٩ جاء أبو مسلم إلى خراسان مزودا بسلطة مطلقة من إبراهيم الإمام ، فقد زعم أن إبراهيم حمله الأمر وقال له : « إنك رجل منا أهل البيت ، فاحتفظ وصيتى وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم ، وانظر هذا الحى من مضر ، فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ومن كان فى أمره شبهة ، ومن وقع فى نفسك منه شىء ، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل[2] » . والتناقض فى هذه الوصية يؤيد انتحالها ، وشدة لهجتها توضح شدة الحقد الكامن فى صدور الموالى .

ولكن أبا مسلم ظل يقتل بين الذروة والغارب حتى استطاع أن يضرب نصرا بالكرمانى ، وأن يدخل مرو ظافرا وأن يعلن دعوته على الملأ . ثم أراد أن يميز حزبه فابتدع بدعا جديدة — اجتماعية دينية ، منها — إيقاد النيران[3] عند اجتماع القوم وهى أثر من آثار المجوس .

---

(١) ط جـ ٣ ص ١٨٦٩

(٢) ط جـ ٢ ص ١٩٣٧

(٣) ط جـ ٣ ص ١٩٥٤

وكانت العادة فى الإسلام أن ينادى الإمام : « الصلاة جامعة » فيجتمع الناس فيصلى بهم ركعتين ، ثم يوضح لهم مايريد . » وغير أبو مسلم صلاة الجمعة والعيدين فأمر الإمام أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان وبلا إقامة ، وكان بنو أمية يبدءون بالخطبة والأذان ثم الصلاة بالإقامة لصلاة يوم الجمعة . ويخطبون على المنابر جلوسا فى الجمعة والأعياد . وأمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يكبر تكبيرات تباعا ، ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر فى الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن ، وكان بنو أمية يكبرون فى الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات[1] ثم صنع راية خاصة سماها السحاب ، وسمى الرمح الذى يحملها الظل ، وتأويل هذين الاسمين : أن السحاب يطبق الأرض وكذلك دعوة بنى العباس . وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الظل أبدا . وكذلك لا تخلو من خليفة عباسى أبد الدهر[2] .

اعتمد العباسيون على الموالى فى حركتهم حتى تم لهم الظفر ، وانتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس : من بيت ابن عم إلى بيت ابن عمه . ولكن هذا الانتقال لم يرض عامة العرب ، فإنه فى نظر التاريخ لم يكن غير فوز للموالى على العرب . يقول الجاحظ : « إن دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ودولة بنى مروان عربية أعرابية[3] » .

ويقول أبو حمزة الأصفهانى فى كتابه (تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء) : « إن الذين قاموا بنقل الدولة إلى بنى العباس وبنى أمية . عجم خراسان بأفنائهم جندهم من العرب[4] » . ويقول بيكر : إن هذه الحرب فى الحقيقة حرب موجهة ضد البيت الأموى . وان انتصار العباسيين على الأمويين انتصار الفرس على العرب[5] .

---

(١) ط ج ٣ ص ١٩٥٦ (٢) ط ج ٣ ص ١٩٥٤

(٣) البيان ج ٣ ص ٢٠٦ (٤) ص ٢١٦ (٥) الدراسات الإسلامية ج ١ ص ١١١

ويقول محمد كرد على فى كتابه : الإسلام والحضارة العربية : « إن الدولة العباسية دولة فارسية دخلها تحوير بالإسلام » .

رأى أبو مسلم أن الوقت حان لانفصال الفرس عن العرب ورأى أن جند الفرس يستطيعون أن يجيبوا رغبته ، فأجمع على خلاف المنصور بعد أن انتصر على عمه عبد الله بن على ، فاجتاز طريق خراسان ، فلما علم المنصور بذلك ، عرف فى نفسه الشر ، فخرج إليه ونزل المدائن وكتب إلى أبى مسلم : « إنى قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتملها الكتاب فأقبل فإن مقامك عندنا قليل » ، فقرأ الكتاب ومضى على حاله ، ثم ولاه مصر والشام فأبى[1] . ومازال يتلطف إليه ويرسل دهاة الرسل حتى أقنعه ، فلما ظفر به ، أمر بقتله ثم خرج فخطب بالناس :

« إن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بيعته فحكمنا عليه[2] » . فاضطربت خراسان جميعها لقتله ٣ وظهرت الفرق الدينية الغريبة عن الإسلام ، التى سنبحث عنها فى الفصول التالية[3] .

البرامكة

اتصلت هذه الأسرة بالبيت العباسى اتصالا وثيقا وهى من الأسر الفارسية القديمة ، فلما ولد الرشيد أرضعته أم الفضل مزوجة يحيى ابن خالد البرمكى ، فتربى الرشيد بين يدى يحيى وفى حجر زوجته ، وكان الرشيد يدعوه أبى[4] وقد اتخذ من البرامكة من الوسائل أكثرها لجعل

---

(١) ط ج ١ ص ١٠٤ ، المسعودى ج ٦ ص ١٧٨

(٢) المسعودى ج ٦ ص ١٨٦ ، ط ج ١ ص ١١٦

(٣) ط ج ١ ص ١١٩

(٤) ط ج ١ ص ٥٩٩ مقدمة ابن خلدون ص ٢٠

مستقبل الخلافة فى يد هرون ، وأخذوا يفرقون بين الشعب والهادى ، ويوسعون شقة الخلاف بين الأخ وأخيه[١] حتى تم لهم الظفر بموت الهادى ، وانتقال الخلافة إلى الرشيد . جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد فقال له : « قم يا أمير المؤمنين » فقال له الرشيد : « كم تروعنى إعجاباً منك بخلافتى ، وأنت تعلم حالى عند هذا الرجل ، فإن بلغه هذا فما تكون حالى ؟ فقال له يحيى : هذا الحرانى وزير موسى ، وهذا خاتمه . فلما قعد هرون للخلافة دعا يحيى بن خالد بن برمك فقلده الوزارة وقال له : قد قلدتك أمر الدولة ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى ، ودفع إليه خاتم الخلافة[٢] ، وبذلك تم انتقال سلطان الحكم من يد العرب إلى يد العجم ، وبقى للعرب الاسم فقط . أخذ البرامكة يتغلغلون فى البلاط ، فاستبدوا بالملك ، واحتجنوا أموال الجباية ، وشغلوا مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة ، وقيادة وحجابة . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب قلم وصاحب سيف . وكبح العرب عن التطاول للولايات ، فصارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة ، وبنى سهل وبنى نوبخت وبنى طاهر[٣] وقد وجه يحيى ولده الفضل والياً على خراسان فاتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءهم لبنى العباس — وقد بلغت عدتهم خمسمائة ألف رجل جاء إلى بغداد منهم عشرون ألفاً[٤] .

وكان هؤلاء البرامكة بما أوتوا من دهاء ، يظهرون الإسلام ويضمرون فى مكنونهم له الكيد . وكانوا كلهم على دين مانى إلا محمد بن خالد[٥] .

---

(١) الجهشيارى ص ٢٠٨ كريمر ج ٢ ص ٦٣

(٢) الجهشيارى ص ٢١١ ، الماوردى ذكره كرد على فى كتاب الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٢١١ ، ط ج ٣ ص ٦٠٣ وما بعدها .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٨ ط ج ١ ص ٦٣٠

(٤) ط ج ١ ص ٦٣١ (٥) الفهرست ص ٣٣٨

البرامكة ورواية التاريخ والأدب

والانتحال ووضع الكتب والترجمة والنشر

تمكن البرامكة من تدوير شئون المملكة والتصرف فى أحوالها ، ولم يكتفوا بهذا القدر من السلطان ، فاندفعوا إلى توجيه الحياة وجهة خاصة ، وأعانوا لتنفيذ خطتهم جماعة من الأدباء والرواة والعلماء والمترجمين والشعراء الذين تفصح أعمالهم عن أهداف هذه الخطة ، وكان من أبرزهم أبو عبيدة وعلان الشعوبى فى رواية التاريخ ووضع الأخبار . وحماد الراوية وخلف الأحمر فى رواية الشعر والانتحال ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقى والفضل بن سهل فى الترجمة عن الفارسية ، وسعيد بن البختكان ، وسهل ابن هرون من الناقمين على العرب ، والواضعين الكتب عليهم ، ومن شعراء البرامكة الذين يذودون بهم عن أنفسهم الفضل بن عبد الصمد المعروف بالرقاشى وهو مولى رقاش . ولعل التعريف بمن ذكر يعطينا صورة تؤيد ما ذهبنا إليه فى شأن هذه الناحية من مقاومة الموالى .

رواة التاريخ وواضعو الأخبار

١ — أبو عبيدة

من موالى تيم قريش ، فارسى الأصل ، أبوه على دين اليهود ، وجده مجوسى ، جمع إلى ثقافة العرب ثقافة الفرس وثقافة اليهود ، ونال حظوة فى بلاط الخليفة بمساعدة المولى إسحق الموصلى ، حيث وصفه للرشيد بالثقة والصدق ، والسماحة ووضع من الأصمعى وثلبه ، وكشف للرشيد معايبه ، فطرد الأصمعى وحل أبو عبيدة محله[1] . كان أبو عبيدة متعصباً

---

(١) أغانى جـ ٥ ص ١٠٧

على العرب يبغضهم[١] ألف كتاب المثالب والطعن على العرب ، منها : كتاب المثالب فى قبيلة باهلة وآخر فى المثالب على وجه العموم[٢] . وفى هذا الكتاب طعن على بعض أسباب النبى[٣] .

وطعنه أكثره اختراع وبهتان ، كما رد عليه ابن دريد فى كتاب الاشتقاق عند ما طعن فى فدكى بن أعبد وكان من عظماء بنى سعد فى الجاهلية وله عقب بالبصرة والبادية[٤] . وقد قصر أبو عبيدة نفسه على مثالب العرب ووقف ضد كل من يفخر بنفسه[٥] . وله كتاب معروف اسمه كتاب الواحدة فى مناقب العرب ومثالبها وضع فيه كثيراً من الحوادث بين قبائل العرب وعزاه إلى الشعوبيين[٦] . يقول كولد تسيهر : إن أباعبيدة مولع بوضع الأخبار ، وضع الأحاديث التى تظهر خلاف القبائل العربية فيما بينها وتهاجيها ، وتشاتمها بقبيح الكلام ومقذع الهجاء[٧] ويقول المسعودى : إن لأبى عبيدة مصنفات فى أيام العرب وغيرها ، منها كتاب المثالب يذكر فيه أنساب العرب وفسادها ويرميهم بما ليس من السياسة ذكره ولا يحسن وصفه[٨] . وألف كتاباً فى فضائل العجم وكان يفخر بهم ويقول : يعجبنى قول أبى نواس .

بنينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتهـــــا بنجوم
فلو رد فى كسر بن ساسان روحه إذن لاصطفانى دون كل نديم[٩]

وألف كتابا آخر سماه عمر كسرى ، وآخر سماه كتاب التاج خاصاً

---

(١) ابن قتيبة ص ٢٦٩
(٢) الفهرست لابن النديم ص٥٣ ، ٥٤ ، ٢٧ ، ٢ ، ٤ ، المسعودى جـ ٧ ص ٨٠
(٣) الفهرست ص ٥٣
(٤) الاشتقاق لابن دريد ص ١٥٣
(٥) الأغانى جـ ١١ ص ٨٦
(٦) المسعودى جـ ٥ ص ٤٨
(٧) كولد تشيهر الدراسات المحمدية جـ ١ ص ٢٠٢
(٨) المسعودى جـ ٧ ص ٨٠
(٩) أخبار أبى نواس ص ٥٢

بالفرس[١] ، وكان إذا رأى شأناً يشرف العرب أرجعه إلى الفرس ، فإذا رأى قصيدة فائقة أو حكاية ممتعة قال : إن العرب قلدوا الفرس بها[٢] . وقد بالغ فى ذلك حتى جعل كثيراً من الأخلاق العربية وحياتهم راجعة إلى الفرس ، ويجعل الفضل فى تقدم الأدب العربى راجعاً إلى الموالى بما ترجموه من آداب آبائهم ، مثل أبان بن عبد الحميد وخاله الكبير الفضل ابن عيسى وولده عبد الصمد (راجع الميدانى جـ ١ ص ٣٦٠) ، يقول أبو عبيدة كان آباء هؤلاء فصحاء فى بلاط خراسان ، فلما وقعوا فى أسر العرب أخذت تجرى فى عروقهم تلك المواهب فأصبحوا خطباء فى العربية كما كانوا لسناً فى الفارسية (راجع البيان والتبيين) يقول كولد تسيهر ، وهكذا يريد أبو عبيدة أن يقطف كل وردة فى تاج الفخر العربى[٣] ، وعن أبى عبيدة هذا انتشرت الروايات فى كتب التاريخ والأدب واعتمد عليه كثير من المؤرخين والمتفقهين باللغة ، فكان الطبرى يروى عنه أخبار القبائل العربية[٤] ، ونجد أمثلة واضحة من اختراعه على العرب فى مثالبهم فى كتاب أنساب الأشراق للبلاذرى[٥] ، وعلى هذا اتخذ البحث فى اللغة العربية والأدب العربى وأخبارهما شكلين مختلفين ، أبو عبيدة وأضرابه يضعون فى ظل الموالى ما يشاءون ، والأصمعى وأمثاله يذكرون ما يرد إليهم من منابعه[٦] .

مات هذا المولى العالم الراوية المحدث عام ستة عشر ومائتين ، وقيل ستة وقيل سنة ثمان أو تسع بعد المائتين ، ويقال إنه ولد سنة عشر بعد

---

(١) كولد تسيهر ص ١٩٧ ، المسعودى جـ ٢ ص ٢٣٨ .
(٢) كولد تسيهر ص ١٩٧ ، الكامل ص ٣٥١ .
(٣) الدراسات المحمدية ص١٩٩ . (٤) ص ٢٥٠ .
(٥) انظر ص١٥٧ من هذا الكتاب نفسه .
(٦) راجع ابن خلكان رقم ٣٨٩ جـ ٤ ص٨٨ وانظر السيوطى فى المزهر جـ ١ ص ٢٠٢ .

المائة وهو اختلاف لم يتحقق وجه الصواب فيه ، ودفن ولم يحضر جنازته أحد لأنه لم يسلم منه شريف ولا غيره[١] .

٢ — علّان أو غيلان

ومن رواة التاريخ وواضعي الأخبار علان أو غيلان ينمى إلى بيوتات العجم ، يبغض العرب ، كان منقطعا إلى البرامكة ، نسخ للرشيد والمأمون في بيت الحكمة ، ووضع كتاب المثالب الذي هتك فيه العرب ، وأظهر مثالبها ، واستقصى فيه جميع القبائل خاصة مثالب قريش[٢] .

يقول الألوسي : ثم نشأ غيلان الشعوبي وكان زنديقاً ثنوياً ، فعمل لطاهر بن الحسين كتابا خارجا عن الإسلام بدأ فيه بمثالب بني هاشم ، وذكر مناكحهم وأمهاتهم ثم بطون قريش ، ثم سائر العرب ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل إفك وبهتان[٣] ، ومن أمثلة ذلك ما شتم به آل منقر قال عنهم : إنهم قوم غدر يقال لهم الكوادن ، ويلقبون أيضاً أعراف البغال ، وهم أسوأ خلق الله[٤] ، وفي ديوان الحماسة ما يثبت غير ذلك . قال سيدهم قيس بن عاصم :

إني امرؤ لا يعترى خلقي دنس يفنده ولا أفن
من منقر في بيت مكرمة والفصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقوم قائلهم بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جوارهم فطن[٥]

وسيد منقر هذا لم يسلم من لسان أبي عبيدة فقد وضع عليه مثلا في كتاب الأمثال الميداني وزخرفه بحكاية[٦] .

---

(١) الفهرست ص ٥٣ .
(٢) فهرست ص ١٠٥ الأغاني جـ١١ ص ١٧٢ وقد ذكر ذلك كولد تسيهر ص ٢٠٦ وما بعدها .
(٣) بلوغ الأرب جـ ١ ص ١٦٠ .
(٤) أغاني جـ ١٢ ص ١٥٦ .
(٥) حماسة ص ٦٩٥ .
(٦) الميداني جـ ٢ ص ٩ راجع العقد جـ ١ ص ٣١ ، أغاني جـ ٣ ص ١٩ .

رواة الأدب وواضعو الشعر

١ — حماد الراوية

يقال عن حماد هذا إنه ابن سابور بن المبارك بن عبيد ، وكان سابور يكنى أبا ليلى من سبى الديلم[1] وجاء فى المزهر إنه حماد بن هرمز الديلمى . ومهما يكن فهو الراوية المشهور الذى روى كثيراً من أشعار العرب وأهم المعلقات ، قال أبو حاتم كان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثل حماد الراوية وغيره ، وكانوا يضعون الشعر ويقتنون المصنوع منه وينسبونه إلى غير أهله . قال الأصمعى : كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا شيئاً سمعناه عن أبى عمرو بن العلاء ، قال أبو الطيب : وحماد مع ذلك غير مأمون عند البصريين ولا ثقة .

جاء أعرابى إلى حماد ، فأنشده قصيدة لم تعرف ، ولم يدر لمن هى ، فقال حماد : اكتبوها ، وقام الأعرابى ، قال لمن ترون أن نجعلها ؟ فقالوا أقوالا ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة .

قال الجاحظ : ذكر الأصمعى وأبو عبيدة عن يونس أنه قال : إنى لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد وهو يلحن ، ويكسر الشعر ويصحف ويكذب . قال محمد بن سلام الجمحى : كان أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الأشعار . وفد حماد البصرة على بلال بن أبى بردة ، فقال ما أطرفنى شيئاً ، فعاد إليه فأنشده القصيدة من شعر الحطيئة فى مديح أبى موسى ، فقال ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى من شعر الحطيئة ولكن دعها تذهب فى الناس . قال

---

(١) الفهرست ٩١ . المزهر ص ٢٠٥

ابن وهب الثقفي : كان حماد الراوية صديقاً ملطفاً ، فقلت له يوماً : أمل علي قصيدة لأخوالي بني سعد بن مالك ، فأملى علي لطرفة :

إن الخليط أجد منتقله ولذاك زمت غدوة إبله

عهدي بهم في القصب قد سندوا تهدي صعاب مطيهم ذلله

وهي لأعشى همدان ، قال الأصمعي : جالست حمادا فلم أجد عنده ثلثمائة حرف ، ولم أر ضن روايته وكان قديماً .

جمع حماد الروايات التاريخية والأدبية ، وأضاف من عنده عليها ما أراد ، ومات ولم يؤلف كتاباً ، بل كان الناس يأخذون عنه ، وقد كتبت كتب ، فأسندت إليه[1] وهي ليست له .

٢ — خلف الأحمر

ومن رواة الشعر ومنتحليه خلف الأحمر ، وهو أبو محرز خلف ابن حيان ، أبوه من سبي قتيبة بن مسلم ، وكان راوية لحماد ، تعلم كثيراً من القصائد وعاش بعده ، قال أبو الطيب في مراتب النحويين : أخبرنا محمد بن يزيد قال كان خلف الأحمر يضرب به المثل في عمل الشعر . وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ؛ ثم نسك ، فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة ، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي في دواوينهم إلى اليوم[2] أعني أن المنحول بقي على انتحاله ، لا فرق بينه وبين الصحيح . وقد ورد في الحماسة شعر لتأبط شراً ، ولكن البعض يقول إنها من وضع خلف الأحمر[3] .

---

(١) راجع المفضليات نشرها لايل ص ١٧ وما بعدها . المزهر ج ٢ ص ٨٧ ، ص ٢٠٥ وما بعدها وقد ذكرها آل وردفي كتابه خلف الأحمر ص ٣٦ المهرست ، ص ٩٠ .

(٢) مزهر ص ٨٨ .

(٣) حماسة ص ٣٨ نشرها فرايتاج

وقد خدع أهل الكوفة كما خدع أهل البصرة[١] ، ورغم ذلك كله كان طلاب العلم يجتمعون حوله يروون عنه ما يقوله ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى صاحب كتاب طبقات الشعراء[٢] . يقول ابن النديم كان خلف الأحمر من أمرس الناس لبيت شعر وكان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم[٣] . ويعزى إليه تأليف ديوان ولكن لم يعرف عنه ذلك . ولما مات رثاه أبو نواس بثلاث قصائد مذكورة فى ديوانه .

المترجمون

١ — أبان بن عبد الحميد اللاحقى

كان ولاؤه للرقاشيين وكان من الأدباء والمترجمين المعروفين فى القرن الثانى الهجرى ، وضع جملة مختارة من الأدب الفهلوى بين يدى القراء ، فترجم تاريخ مزدك وسيرة أردشير ، وكتاباً خاصاً ببوذا وكتباً أخرى ، وترجم كتاب كليلة ودمنة ، ونظمه شعراً ليسهل حفظه على جعفر ابن يحيى البرمكى .

وكان يعرف عن أبان هذا أنه زنديق ، وأنه من يتشبهون بحماد عجرد ووالبة بن الحباب وأمثالهما ، وهو من الذين يمجدون مانى ، ولا يعتقدون إلا بما تقع عليه الحواس . تفيأ ظلال بنى برمك فوثقوا به ووكلوا به امتحان الشعراء وتصنيف قصائد المدح التى كانت تترى على عتبات آل برمك . وكان له القول الفصل فى ذلك فعلا شأنه وحسن ذكره وقد وضع مرة قصيدة لأبى نواس فى موضع لا يليق بها ، فغضب أبو نواس وهجاه هجاء مراً كشف فيه صفحة حاله ، وقد كتبت هذه القصيدة فى الجزء

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٩١ طبع باريس . (٢) مزهر ج ٢ ص ٢٧١ .
(٣) فهرست ص ٥٠ راجع آل ورد فى كتابه خلف الأحمر ص ٣٦ .

العشرين من كتاب الأغانى ، والجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ ، ولكن أبانا كان ذكى الفؤاد حذراً فكان يدرأ عن نفسه الشبهات لئلا يقع بين يدى صاحب الزنادقة مثلما وقع غيره من أمثاله ويقال إن صديقاً أشار عليه بأن يؤلف كتاباً فى العبادات ، وقد فعل ووضعه نظما ، وروى لنا الصولى قطعة من هذا الكتاب فيما يخص الصيام والاعتكاف ، وجاء ذكر هذا فى الفهرست لابن النديم . ومع ذلك كله فإن الناس كان يعرفون عن أبان أنه يظهر خلاف ما يبطن ، وأنه من صنائع البرامكة الذين لهم وجهة خاصة ورأى خاص فى كل ما جاء عن قلب الجزيرة العربية .

يقول المعذل الشاعر :

رأيت أبانا يوم فطر مصليا ... فأدهش رأيى واستفزنى الطرب
وكيف يصلى مظلم القلب دينه ... على دين مانى إن ذاك من العجب

٢ — الفضل بن سهل

ومن المترجمين من الفارسية إلى العربية الفضل بن سهل ، فقد نقل ليحيى كتاباً من الفارسية إلى العربية ولم نعرف عن هذا الكتاب شيئاً ، فأعجب يحيى بفهمه وجودة عباراته فقال له : إنى أراك ذكياً ، وستبلغ مبلغاً رفيعاً فاسلم ، حتى أجد السبيل إلى إدخالك فى أمورنا والإحسان إليك ، فقال : نعم أصلح الله الوزير ، أسلم على يديك ؟ فقال له يحيى : لا ! ولكن أضعك موضعاً تنال به حظاً من دنيانا ، ودعا سلاما مولاه وقال : خذ بيد هذا الفتى وامض به إلى جعفر ، وقل له يدخل على المأمون ، وكان فى حجر جعفر ، حتى يسلم على يديه فوصله وأحسن إليه ، وأجرى عليه رزقا مع حشمه ، ولم يزل ملازما للفضل حتى أصيب البرامكة فلزم المأمون وكان البرامكة يعلقون آمالا عليه من ذلك ما ذكره أبو العلاء المذارى

أنه سمع الفضل بن سهل يقول : قال لى يحيى بن خالد فى كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة وأنت عندى منهم[١] .

واضعو الكتب ضد العرب

١ — سهل بن هرون

ومن الذين نقموا على هذه المبادىء الجديدة التى حملت بين ظهرانى قومهم ، ووجهتهم وجهة أخرى ، سهل بن هرون خازن بيت الحكمة للمأمون . يقول كولد تسيهر : إن العالم المشهور أمين سر المأمون وخازن بيت الحكمة سهل بن هرون الدستميانى كتب عدداً كبيراً من الكتب أظهر فيها تعصبه ضد العرب ، وتفخره بالعجم ، وكان من متطرفى قومه فى أيامه ، وأدبه الغريب الذى اشتهر به ، إنما وضعه ليسخر به من العرب فإنه كتب سلسلة من الرسائل يمدح فيها البخل بل كتب كتاباً على مايقال يذم فيه الكرم ويفضل البخل وماذلك إلا لأن الكرم صفة من صفات العرب[٢] .

٢ — سعيد البختكان ومحمد بن الليث بن الخطيب

وقد كتب سعيد بن البختكان كتاباً سماه (انتصاف العجم من العرب) ووضع كتاباً آخر أسماه (فضل العجم على العرب وافتخارها) . وكان محمد بن الليث بن الخطيب بن ادرياد بن فيروز يرمى بالزندقة وكانت البرامكة تقدمه وتحسن إليه . يقول عنه كولد تسيهر : إن الفقيه الخطيب محمد بن الليث الذى ينتهى نسبه إلى دارا كان مولى لبنى أمية ، لم يتوان

---

(١) جهشيارى ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢) كولد تسيهر الدراسات المحمدية ص ١٦١ ، الفهرست ص ١٢٠ .

من إظهار عصبيته للفرس فى أيام البرامكة ، ولعل هذه العصبية هى التى جعلت الناس يرمونه بالزندقة[1] .

٠ — الرقاشى

ومن هؤلاء الذين كانوا ينعمون فى ظل البرامكة وينقمون على العرب الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش من عجم أهل الرى ، انقطع إلى آل برمك فأغنوه عن سواهم وكانوا يصولون به على الشعراء ويروون أولادهم شعره ويدونون القليل والكثير منه تعصباً له وحفظاً لخدمته ، وتنويهاً باسمه وتحريكا لنشاطه فحفظ ذلك لهم ، فلما نكبوا ، صار إليهم فى حبسهم وأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا ، ورثاهم فأكثر فى رثائهم . ومن قوله فى الفضل بن يحيى :

أما والله لولا خوف واشى ... وعين للخليفة لا تنـــام
لطفنا حول جذعك واستلمنا ... كما للناس فى الحجر استلام
فما أبصرت قبلك يابن يحيى ... حساماً حتفه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً ... ودولة آل برمك السلام

على أمثال هذا وغيره من رواة الأدب والتاريخ ومترجمى الكتب ، اعتمد البرامكة وبهم وجهوا التاريخ والأدب والحياة توجيهاً خاصاً ، وسنفرد للأدباء الذين نهجوا نهجاً معروفاً باباً خاصاً بهم . وقد مكنوهم من مناصب الدولة والمراكز العالية وخصوهم بالعطاء وساعدوهم على نشر آرائهم ومترجماتهم ، ومن هذه المنابع استقينا أكثر نواحى أدبنا وتاريخنا ، فكتب المؤرخون ، وروى الأدباء ، وتمثلوا بالأساليب والآراء . وسنرى فى باب الشعر ما فعله شعراء الموالى .

---

(١) راجع الفهرست ص ١٢٠ ، ١٢٣ ، الدراسات المحمدية ص ١٦١

نكبة البرامكة

شعر العرب بخطر الموالى شعوراً بيناً منذ أول أيام الدولة العباسية، فقال عبد الصمد بن على للمهدى : ياأمير المؤمنين ، إنا أهل بيت قد أشربت قلوبنا حب موالينا وتقديمهم ، وإنك قد صنعت من ذلك ما أفرطت فيه ، فقد وليتهم أمورك كلها ، وخصصتهم فى ليلك ونهارك ، ولا آمن تغيير جندك وقوادك من أهل خراسان ، فلم يهتم المهدى بذلك . ولما صارت الخلافة إلى الرشيد ، اتسعت سلطة الموالى فاستولوا على الحركة العلمية والأدبية ، وعلى شئون الدولة جميعها ، ومنع العرب من الوصول إلى بلاط الخليفة ، وظلوا بعيدين عن هذا البلاط ، تارة يذكرون الناس بأبيات من الشعر وأخرى يستطيعون إيصال خبر مقتضب إلى الخليفة ، ولكن كل ذلك لم ينفع (فقد كانت مراقبة الموالى شديدة) حتى أدرك الرشيد الخطر وأيقن أن دولته شرعت تجنح إلى الزوال ، فأوقع بالبرامكة هذه النكبة المشهورة التى كتب عنها المؤرخون كثيراً وصاغوا حولها الأساطير التى نقرؤها فى كل تاريخ من تواريخ الأمة . ونجد فيها اختلاف الأسباب وتنوع الآراء ، ويمكن تلخيص أسباب زوال هذه الأسرة التى حكمت ما يقرب من سبعة عشر عاماً حكماً مطلقاً (٧٨٦ — ٨٠٢ م) فى الأمور الآتية :

١ — أرادوا قلب الحكم العباسى كما فعل أبو مسلم الخراسانى فى قلب الحكم الأموى ، وقد حاولوا أن ينقلوا الحكم من أسرة إلى أخرى ، وغايتهم فى ذلك إضعاف شوكة العرب ليستطيعوا إعادة الدولة الفارسية[1]

٢ — استأثروا بالأموال والتصرف بشئون الدولة[2] . يقول

---

(١) ط ج ٢ ص ٦٦٩ ، ابن خلكان ١٠٩ ، جهشيارى ص ٣٠٥ .

(٢) مقدمة ص ١٤ وما بعدها .

ابن خلدون : إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمر ملكه فنقم عليهم ، كما يستدل من توقيع له جاء فى العقد الفريد فى أمر البرامكة ، أنبتته الطاعة وحصدته المعصية[١] .

٣ — أعطوا الوظائف لأقاربهم وصنائعهم من الموالى ، وأبعدوا العنصر العربى . يقول ابن خلدون : وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى خمسة وعشرون رئيساً من صاحب سيف وصاحب قلم[٢] .

٤ — اتهامهم بالزندقة وترويج عقائد المجوسية ومذاهب الشرك . يقول ابن النديم : البرامكة كلهم زنادقة ، ما عدا محمد بن خالد . ويقول كريمر : إن أفراد أسرة البرامكة الشهيرة كانوا كلهم على دين مانى[٣] .

٥ — أخذ الشعراء يقفون على أبوابهم ويمدحونهم ، وأخذت تصلهم هدايا الملوك من أقصى التخوم ، واستولوا على القرى والضياع ، وتغلب اسمهم على اسم الأسرة المالكة[٤] .

فلم يستطع الرشيد صبراً على هذه الأمور وفعل فعلته وقضى عليهم قبل أن يغيروا ملكه . ولكن عمل الرشيد جاء متأخراً ، فإن الموالى تمكنوا من الدولة بالوسائل التى ذكرت وتغلغلوا فى المحيط ، ولم ينفع فى الأمر قتل أفراد أو نفيهم ، فقد كثر علماء الموالى وظهرت آثارهم وزاد شعراؤهم وتمكنت جمعياتهم من وضع الخطط للوقوف أمام العرب وابتداع الوسائل لإنجاح المقاصد .

---

(١) عقد جـ ٢ ص ١٨٨ . (٢) مقدمة ص ١٤ .

(٣) فهرست ص ٣٣٨ ، تاريخ الثقافة ص ١٧٠

(٤) ابن خلدون مقدمة ص ١٤